الجزء الثالث

بوناپارت فى القاهرة
طبقا لشرح ناپوليون

بوناپارت فى القاهرة
طبقا لشرح ناپوليون

ملاحظة خاصة:

إذا كان كتاب «الحملات ـ Campagnes» قد كتب فى سانت هيلين. فإن ناپوليون قد فكر فى كتابته وهو فى جزيرة إلبا.

النص، فى الحقيقة، كان هو الذى اعتمده المحررون الرسميون لكتاب «مراسلات ناپوليون ـ Correspondance».

«سوف تلاحظ، دون شك، بأى اهتمام خاص قام مؤلف «حملات إيطاليا ومصر بمفارقة تاريخية متميزة، باستخدام اسم ناپوليون بدلا من بوناپارت».

المفارقة التاريخية، فى الحقيقة، كانت متحيزة تماما. ألم تكن حول تأكيد ـ بأعظم قوة ممكنة ـ الأسباب التى قد تؤثر على فرنسى المستقبل فى متابعة السياسة الإسلامية للجنرال بوناپارت؟ ناپوليون كان يتحدث بلغة تبدو له أنها أكثر ملاءمة لهذا الغرض.

الاختلافات الواضحة (لها طبيعة نفسية فريدة، كما يبدو) بين نص «الحملات» ونص «المراسلات» تتوافق معا ببساطة بجمع العملين معا.

الدين الإسلامى

الوثيقة (٤٨)

(مقتطفات من الحملات)

١ ـ عن دين الإسلام .

٢ ـ عن علماء جامع الأزهر .

٣ ـ الفتوى .

٤ ـ عيد وفاء النيل . عيد مولد النبى ﷺ .

٥ ـ إمام مكة .

٦ ـ عن الفنون، والعلوم، والآداب، أيام الخلفاء .

٧ ـ عن تعدد الزوجات .

٨ ـ عن العادات والأخلاق .

أولا: عن دين الإسلام

موسى أوحى بوجود الله إلى قومه؛ المسيح عيسى إلى الإمبراطورية الرومانية؛ محمد ﷺ إلى العالم القديم. موسى أخرج ذرية يعقوب من عبوديتهم فى مصر. أبقاهم أربعين سنة فى الصحراء، حيث أعطاهم الشرائع. اشتاقوا دون انقطاع إلى «تلك الأوانى المليئة باللحوم التى أكلوا منها كفايتهم». لكى يقاوم رغبتهم إلى العودة، كرس نفسه؛ لكى يثير فيهم شخصية فريدة، عزلتهم عن بقية الشعوب. العبريون يعرفون الله الحق ألف سنة قبل غيرهم من الناس.

المسيح عيسى، رغم أنه من ذرية يعقوب، لم يكن لديه طموح لعرش آبائه،

أقسم وأمر بطاعة أى حكومة رسمية.

«القوة كلها تأتى من الله. إمبراطوريتى ليست فى هذا العالم. أعط مالقيصر لقيصر. لم يكن له غير هدف واحد فى رسالته الإلهية: أن يريح الضمائر، ويرشد النفوس فى هذه الحياة؛ لكى يحقق خلاصهم فى الحياة الأخرى. الإنجيل لم يعط إرشادات للحكومة عن أشياء فى هذه الدنيا. عقيدة المسيحيين لم تفعل شيئا؛ لكى تثير غيرة القياصرة؛ ولكن بنفس المبدأ كانت عظيمة الفائدة للسلالات الحاكمة التى نشأت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية: أعطتها الشرعية. كلوڤيس لم يصبح ملكا حقا إلا بعد مباركته [من الكنيسة].

الدين المسيحى هو دين قوم عظيمى الحضارة. إنه يرفع قدر الإنسان؛ ويعلن سمو العقل على المادة، وسمو الروح على الجسد. تغذى ونما فى الكليات الإغريقية كان انتصارا لسقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس على فلامينياس، وسيپيو، وپول-إميل. الرومان قهروا اليونان بقوة أسلحتهم، ولكنهم استسلموا دون وعى لنفوذ لا يقاوم لعقل، وفنون، وعلوم المقهورين. القوانين الرئيسية للكنيسة درست وقررت فى مؤتمرات عقدت فى الشرق خلال القرون الثمانية الأولى، فى نيقيا، والإسكندرية، وأنطاكيا، والقسطنطينية، وخالقيدون، وقيصرية وأثينا. مثل كل شىء آخر حقق ذاته بنفوذ الإقناع وحده، تقدم دين يسوع المسيح ببطء، احتاج أربعة قرون لكى يصعد إلى العرش، تمجيد قيصر وأغسطوس تلاه تمجيد أقبح الطغاة، شعرت الشعوب ببغض شديد لدين كان فيه لتايبيريوس، وكاليجولا، وهيليوجابالوس (أباطرة رومانيون) قساوسة ومذابح، وبحثوا عن السلوى فى عقيدة الإله الذى لا يموت، الذى لايُخلق، بل يخلق، العاطى، سيد كل شىء.

الكنيسة المسيحية وعدت الصالحين أنهم سوف يرون الله وجها لوجه، بهجة روحية كاملة، وفى نفس الوقت هددت الأشرار بعقاب بدنى؛ لأنهم سوف يحترقون فى نيران ملتهبة، التباين يفسر نفسه إذا هدد الأشرار بعقاب روحى، فإن ذلك قد يسعدهم ويشجعهم؛ العقاب سوف يكون بالغ الضعف ولن يكبح

أفكارهم الشريرة، من الناحية الأخرى جنة بها نماذج مختارة من الملذات الدنيوية التى تريح الجسد، والتى توصى الأخلاق المسيحية بكبحها وإبادتها.

كانت شبه الجزيرة العربية وثنية عندما قدم إليها الرسول محمد ﷺ، بعد ستة قرون من زمن يسوع المسيح، عقيدة رب إبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى. الأريون والطوائف الأخرى التى عكرت هدوء الشرق، جادلوا الموضوع مثل طبيعة الآب، والابن، والروح القدس. الرسول محمد أعلن أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، لم يكن له أب ولا ولد، وأن الثالوث المقدس يشمل مفهوما وثنيا، ركز على الموضوع الرئيسى للقرآن: **«لا إله إلا الله»**.

محمد ﷺ كان يخاطب شعوبا بربرية فقيرة وجاهلة تفتقر إلى كل شىء؛ إذا كان قد تحدث إلى عقولهم، لما كانوا قد فهموه(*). فى وسط وفرة الإغريق، كانت مباهج التأمل الروحى ضرورية؛ ولكن فى الصحراء الجرداء، حيث يتلهف العربى دائما على مصدر ماء، وعلى ظلال شجرة تحميه من أشعة الشمس الحارقة، من الأفضل أن تمنىّ الإنسان وتعده بأنهار حليب لا تنضب، وبساتين عَطرة يرتاحون تحت ظلالها الدائمة، وبأذرع حور الجنة ذوى البشرة البيضاء والعيون السمراء، البدو يشتاقون إلى مثل هذا الأمل الساحر، ويضحون بكل شىء لتحقيقه، ويصبحون أبطالا.

محمد ﷺ كان أميرا؛ حشد أصحابه حوله فى سنوات قليلة، قام مسلموه بغزو نصف العالم. أنقذوا من آلهتهم الزائفة أرواحا أكثر، دمروا أوثانا أكثر، وخربوا معابد وثنية أكثر فى خمس عشرة سنة مما فعله أتباع موسى وعيسى فى خمسة عشر قرنا. محمد ﷺ كان رجلا عظيما. عندما ظهر، كان العرب مزمنين فى حروب أهلية منذ زمن طويل. كل أمر عظيم قامت به الشعوب على مسرح العالم، كان نتيجة أزمات فى الروح والجسد. إذا كانت معارك القادسية والـ . . . (**) التى سمحت للمسلمين البواسل بوضع علم النبى على حدود الصين، وإذا كانت معارك أجنادين واليرموك، التى وضعت سوريا ومصر تحت سيطرتهم،

(*) تحدث محمد ﷺ للعقول والقلوب، ولكن بحكمة نادرة - بيدكوك.
(**) سقط الاسم من المخطوطة.

قد تحولت ضدهم؛ إذا كان خالد وضرار، وعمرو قد هُزموا، وطردوا إلى الصحارى الشاسعة ,لكان العرب قد عادوا إلى حياتهم البدوية، وعاشوا مثل آبائهم، فقراء وتعساء؛ لما كانت أسماء محمد، وعلى، وعمر قد أصبحت معروفة فى العالم.

تصاعد المسيحية المطرد، من الناحية الأخرى، لم يعتمد على نجاح أية مسألة ثانوية. انتشر الدين تدريجيا وتلقائيا باعتباره عقيدة تُقنع وتأسر، لا يستطيع أى شىء أن يوقف تقدمه.

قسطنطين عجل بانتصاره. يسوع المسيح كان واعظا، أعطى حواريه نعمة الكلمة. موسى ومحمد كانا قائدين للشعوب، وضعا القوانين، ونظما شئون هذه الدنيا. قال محمد ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»(*)، «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»(**).

كان غير متسامح (***). قتل غير المؤمنين أو إخضاعهم للجزية، وتدميره قوة الوثنية لأنها إساءة لله، كتبت فى جميع صفحات القرآن. لن يستطيع المسلمون أبدا أن يستسلموا بإخلاص لأى أمير وثنى.

ثانيا: عن علماء جامع الأزهر

الأديان الثلاثة التى نشرت معرفة الله الواحد الأحد الذى خلق الإنسان، جاءت من شبه الجزيرة العربية ـ موسى، ويسوع المسيح، ومحمد، وهم عرب وُلدوا بالتتابع فى ممفيس، والناصرة، ومكة. أوروبا، وأسيا، وأفريقيا، وأمريكا، التى تشمل الكثير من البرارى الشاسعة، والجبال العالية، والبحار الكبيرة، والوديان الغنية، والمدن الضخمة، تتبع موسى، ويسوع المسيح. أو محمد، وكيفت حياتها طبقا للكتب المقدسة، الإنجيل، أو القرآن، وحولت أنظارها إلى البلاد العربية، تجاه القدس، والناصرة، ومكة. إذا كانت روما قد أصبحت مركزا للمسيحية، فإن ذلك يرجع إلى سيبيو، وقيصر، وتروجان (أباطرة الرومان) الذين غزوا جزءًا

(*) مسلم فى: الجهاد [٢٠ / ١٧٤٢].
(**) مسلم فى: الإمارة [١١٩/ ١٨٨٦]، وأحمد [٢ / ٢٢٠].
(***) فى عبادة الأوثان.

من العالم. نفوذ روما الحديثة ينبثق من قوة روما القديمة. ولكن لماذا كانت القدس، والناصرة، ومكة تنتمى إلى نفس المنطقة؟

فى جميع الأزمات، كانت الأفكار الدينية تسود بين قدماء المصريين. الفرس لم يستطيعوا أبدًا أن يستقروا فى مصر؛ لأن المجوس أرادوا عبادة آلهتهم هم واستبعاد آلهة النيل.

برز بين الشعبين تنافس على الأوثان، والشعائر، والكهنة، جعلهم أعداء عنيدين يستحيل تصالحهم معا. كثيرًا ما قامت جيوش الفرس بغزو مصر، وكان المصريون يثورون عليهم دائما. عندما وصل الإسكندر الأكبر إلى حدود مصر، هرول المصريون إليه، ورحبوا بهذا الرجل العظيم باعتباره محررا لهم. عندما عبر الصحراء، بمسيرة خمسة عشر يوما، من الإسكندرية إلى معبد أمون، وأعلن نفسه ابنًا لجوبيتر، كان يعرف عقول هؤلاء الناس؛ لاطف أعرافهم السائدة؛ وبذلك عزز غزوه بأكثر مما يفعله بناء عشرين موقعا حصينا، وتجنيد مائة ألف مقدونى.

الدبلوماسيون الذى أحسنوا مراقبة روح شعب مصر، اعتبروا أن الدين هو العقبة الرئيسية لاستقرار السلطة الفرنسية. «لكى يستقر الإنسان فى مصر»، قال ڤولنلى عام ١٧٨٨: «يجب عليه أن يتحمل ثلاث معارك؛ الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالى، ولكن الثالثة، الأكثر صعوبة ضد المسلمين الذين يشكلون سكان هذه الدولة. هذه المعركة الأخيرة سوف تسبب خسائر كثيرة، وربما يجب اعتبارها عقبة يستحيل تجاوزها».

سيطروا على الإسكندرية والقاهرة، وانتصروا فى شبراخيت والأهرامات، ومازال موقف الفرنسيين غير مستقر. لم يتحملهم المؤمنون الذين بعد أن أذهلتهم سرعةالأحداث، استسلموا للقوة، ولكنهم كانوا يستنكرون علنا نصر الوثنيين الذين كان حضورهم يدنس المياه الطاهرة. كانوا يئنون ألما من العار الذى سوف ينزل على المفتاح الأول للكعبة المكرمة، وكان أئمة المساجد يصرون على تلاوة آيات القرآن التى تعارض غير المؤمنين بشدة.

كان من الضرورى إيقاف تقدم هذه الأفكار الدينية، وإلا تعرض الجيش الفرنسى للخطر، رغم انتصاراته. لقد أضعفت، وأثبطت همته، وأصبح غير قادر على احتمال هذه الحرب الدينية. فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان الصليبيون يسيطرون على أنطاكيا والقدس، وغيرهما من المدن، ولكنهم كانوا متعصبين مثل المسلمين. سجلات تاريخ العالم لا تقدم لنا أمثلة لمثل الجهد الذى بذلته أوروبا حينذاك. ملايين عديدة من الأوروبيين ماتوا فى ميادين سوريا، ومع ذلك بعد بعض الانتصارات سريعة الزوال، هُزم الصليب، وانتصر المسلمون.

نبوءة ڤولنلى، كانت سوف تتحقق، يجب على الإنسان أن يهدئ الأفكار الدينية، وأن يتجنب لعنات النبى، وألا يسمح لنفسه أن يوضع فى صفوف أعداء الدين الإسلامى؛ يجب على الإنسان أن يقنع وأن يكتسب ود الشيوخ، والعلماء، والأشراف، والأئمة؛ لكى يقوموا بتفسير القرآن لصالح الجيش. (*)

مدرسة جامع الأزهر هى الأكثر شهرة فى الشرق. أنشأها صلاح الدين، ستون أستاذا أو عالما يدرسون مختلف الموضوعات التى تتعلق بالدين، ويفسرون الكتب المقدسة، هذه المدرسة وحدها هى التى كانت تستطيع أن تقدم مثالا، وتنور الرأى العام للشرق وللطوائف الأربع التى تشكله، هذه الطوائف الأربع، الشافعية، والمالكية، والحنبلية، والحنفية، كانت تختلف عن بعضها فقط فى نقاط انضباط السلوك، كان لكل منها فى القاهرة، مفتيا يقودها. لم يوقف ناپوليون أى شىء عن تطويقهم ومداهنتهم. كانوا رجالا مسنين، محترمين لحسن أخلاقهم، وعلمهم، وثرائهم، وأيضا لنسبهم، كل يوم عند الفجر تعودوا هم وعلماء جامع الأزهر، على الذهاب إلى القصر قبل وقت الصلاة. حاشياتهم كانت تغلق ميدان الأزبكية كله كانوا يجيئون على بغالهم المطقمة بثراء، يحيط بهم خدمهم وعدد كبير من حملة الهراوات. رجال الحراسة الفرنسيون يحملون السلاح ويعاملونهم بإجلال، عند دخولهم إلى غرف الاستقبال، يقابلهم المساعدون والمترجمون باحترام

(*) نكرر هنا، ناپوليون (المسيحى) يبرر بوناپارت (المسلم) فى عيون أوروبا المسيحية. پيدكوك.

ويقدمون لهم القهوة والشراب المثلج، بعد لحظات قليلة، يدخل الچنرال ويجلس بينهم، ويحاول أن يكتسب ثقتهم بنقاش حول القرآن، ويطلب منهم تفسير آياته الرئيسية، ويظهر لهم إعجابه الشديد بالنبى. بعد رحيله يذهبون إلى الجوامع حيث يحتشد الناس، وهناك يتحدثون إليهم عن آمالهم، ويهدئون شكوكهم ومخاوفهم، وهم يقدمون بذلك خدمة جليلة للجيش الفرنسى.

الإدارة الفرنسية احترمت ممتلكات الجوامع والمؤسسات الخيرية، وحافظت عليها بحياد لا يمكن أن يكون إلا نتيجة ميول صادقة من القائد تجاه دين المسلمين.

المبدأ الرئيسى لسياسة الأتراك والمماليك كان هو إبعاد الشيوخ عن إدارة العدل والحكومة؛ كانوا يخشون أن تصبح لهم سلطة قوية. بالنسبة لأولئك الرجال المسنين المحترمين، كانت مفاجأة طيبة لهم عندما وجدوا أنفسهم يتولون مسئولية القضاء المدنى والجنائى، ويتولون أيضا إدارة جميع شئون الدولة الخاصة بالمنازعات. ازدادت مصداقيتهم سريعا بين الناس، فى أقل من شهر بعد دخول الجيش الفرنسى إلى القاهرة، تغيرت فعلا أوضاع الشيوخ. أصبحوا موالين مخلصين للسلطان الكبير، هم أنفسهم كانوا يندهشون أن انتصار غير المؤمنين الذى كانوا يخشونه كثيرا أكد نصرهم هم، لقد كان لصالحهم أن انتصر الفرنسيون عند الأهرامات! جميع قراهم، وجميع ممتلكاتهم الخاصة، حوفظ عليها بعناية فائقة. لم يتلق أبدا هؤلاء الرجال الذين كانوا أيضا قادة للدين ونبلاء ورجال عدل، مثل هذا الاهتمام، ولم يحظوا أبدا بمثل هذه الحماية، ليس فقط من المسلمين، بل أيضا من المسيحيين، والأقباط، واليونانيين، والأرمن الذين يقيمون فى هذه الدولة. هؤلاء الأخيرون انتهزوا فرصة دخول الجيش ليتخلصوا من قيودهم السابقة، ويواجهوا المسلمين؛ وفور أن علم القائد العام بذلك، قام بتأديبهم. أعاد النظام العام. أعاد الممارسات السابقة فى جميع الشئون، إلى ما كانت عليه، وأسعد بذلك المسلمين، واكتسب ثقتهم.

منذ الثورة، لم يؤمن الجيش الفرنسى بتعاليم أى دين. لم يذهب إلى الكنائس فى إيطاليا، ولا فى مصر أيضا، هذه الحقيقة لم تغب عن أنظار العلماء الحادة التى

تغار على دعوتهم وتراقب أى شىء يتعلق بها . كان لهذه الحقيقة أفضل تأثير عليهم إن لم يكن الفرنسيون من المسلمين ، فهم يرون على الأقل أنهم ليسوا من الوثنيين . من الواضح أن السلطان الكبير(*) كان تحت رعاية وحماية الرسول ﷺ ، من خلال هذا النوع من الغرور الشائع بين جميع الرجال ، أسعد الشيوخ أن يعتبروا أن ذلك كان سبب كل هذه الرعاية التى أعطيت لهم والاحترامات التى أغدقت عليهم وعلى كل ماكانوا يقولونه . محاباتهم لناپوليون كانت واضحة وأصبحت فعلا بندا من إيمانهم ، « إن الفرنسيين ماكانوا يستطيعون أبدا أن ينتصروا على المؤمنين مالم يكن قائدهم يتمتع بحماية خاصة من النبى ، جيش المماليك كان جيشا لايقهر وكان أشجع جيش فى الشرق ، وإذا كان لم يستطع أى مقاومة ، فقد كان ذلك لأنهم غير أتقياء وكانوا ظالمين . هذه الثورة العظمى كتبت فى بعض آيات القرآن»

فى وقت لاحق ، لامس السلطان الكبير حبل الوطنية العربية لماذا استسلم الشعب العربى للأتراك ؟ لماذا تستسلم مصر الخصيبة والسعودية المقدسة لسيطرة قوم من القوقاز؟ لو نزل الرسول محمد ﷺ من السماوات إلى الأرض إلى أين يذهب؟ هل يذهب إلى مكة؟ لن يكون هناك فى مركز الإمبراطورية الإسلامية . هل يذهب إلى القسطنطينية؟ ولكنها مدينة دنيوية دنسة ، عدد الكفار فيها يزيد على عدد المؤمنين بذلك سوف يصنع نفسه وسط أعدائه ، كلا هو سوف يفضل مياه النيل المباركة ، سوف يأتى ليسكن فى جامع الأزهر أول مفتاح إلى الكعبة المكرمة» .

عندما سمعوا هذه الكلمات ، أشرقت وجوه الرجال المسنين المبجلين ، وأحنوا أجسامهم وضموا أذرعهم إلى صدورهم وقالوا : طيب ، طيب ، هذا صحيح تمامًا!

بعد أن هزم مراد بك قال لهم ناپوليون : إنى أريد إعادة إحياء الأمة العربية ، من ذا الذى سوف يمنعنى؟ أنا دمرت المماليك أكثر ميليشيات الشرق بسالة . بعد أن يفهم أحدنا الآخر وبعد أن يدرك المصريون الطيبات التى أريد أن أفعلها لهم ، سوف ينضمون إلى بإخلاص . سوف أعيد أمجاد الفاطميين .

(*) المقصود ناپوليون ، كما سماه العرب .

هذه الأقوال كانت موضوع نقاش بين كبار شخصيات القاهرة، ماشهدوه عند الأهرامات جعلهم يعتقدون أن الجيش الفرنسى قادر على كل شىء. إعجابهم شمل القائد، اعتقدوا أنه رجل القدر. الشيخ المهدى أكثرهم بلاغة وأكثرهم علما وأصغر شيوخ جامع الأزهر، كان أيضا أكثرهم ثقة بالقائد، ترجم البلاغات التى أصدرها إلى شعر عربى، حفظت الأشعار عن ظهر قلب ولازالت تتلى فى صحارى إفريقيا والبلاد العربية.

منذ أن قام العلماء بتشكيل الديوان الذى تولى مسئولية الحكم، كانوا يتلقون التقارير فى جميع الأقاليم، وكانوا على علم تام بالشغب الذى سببه سوء الفهم وافتراءات غير المخلصين، بدأ السلطان الكبير يشكو بحدة من خطب سيئة القصد يلقيها أئمة المساجد فى صلوات أيام الجمعة، ولكن التأنيب والتحذير الذين قدمهما الشيوخ لهؤلاء الأئمة المتمردين كانا عديمى الجدوى. أخيرا عندما وجد لحظة مواتية، قال ناپوليون للشيوخ العشرة الرئيسيين الذين كانوا مقربين إليه: «من الضرورى أن نضع نهاية لهذا الشغب، يجب أن أحصل على فتوى من جامع الأزهر تلزم الناس بأن يقسموا يمين الولاء».

بهتوا وشحبت وجوههم من هذا الاقتراح، ملامحهم عكست الحزن والرعب الذى فى قلوبهم، الشيخ الشرقاوى رئيس علماء جامع الأزهر أخذ دور المتحدث وقال بعد تأمل طويل: **«أنت تريد أن تنال حماية الرسول ﷺ، هو يحبك، أنت تريد أن تحشد المسلمين العرب تحت أعلامك، أنت تريد أن تحيى أمجاد الأمة العربية وأنت لست وثنيا. كن مسلما ١٠٠ر٠٠٠ مصرى، وأيضا ١٠٠ر٠٠٠ عربى سوف يأتون من شبه الجزيرة العربية من مكة والمدينة؛ ليصطفوا حولك تحت قيادتك وتنظمهم بوسائلك، سوف يغزون الشرق، وسوف تعيد أنت بناء وطن الرسول ﷺ بكل عظمته».**

فى هذه اللحظة أشرقت وجوه الشيوخ، سجدوا جميعا يتضرعون إلى حماية السماء. بدوره ذهل القائد العام، رأيه الذى لايتغير هو أن كل إنسان يجب أن يموت وهو على دينه، ولكنه أدرك سريعا أن الحديث والنقاش حول هذه الأمور له تأثير جيد.

أجابهم: توجد صعوبتان عظيمتان تعارضان تحولى أنا وجيشى إلى الإسلام، الأولى: هى الختان، والثانية: هى النبيذ. جنودى تعودوا على النبيذ منذ طفولتهم، لن أستطيع أبدا أن أقنعهم بالتخلى عنه.

اقترح الشيخ المهدى أن يقوم شيوخ جامع الأزهر الستون بدراسة علنية عن هذا الموضوع. انتشرت الشائعات سريعا عبر جميع المساجد أن كبار الشيوخ منهمكون ليلا ونهارا فى تدريس مبادئ الشريعة للسلطان الكبير وكبار الجنرالات، وأنهم أيضا يبحثون إصدار فتوى تسهل بقدر المستطاع وقوع حدث بالغ الأهمية. ازداد احترام الذات لدى جميع المسلمين وعمتهم البهجة.

انتشرت الأنباء أن الفرنسيين معجبون بالرسول محمد ﷺ، وأن قائدهم يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأنه يتفق أن الماضى والحاضر والمستقبل، موجود فى كتاب الحكمة هذا، وأن مايعوقه عن الإسلام هو الختان وتحريم النبى ﷺ لشرب النبيذ. الأئمة ومؤذنى المساجد كانوا فى حالة إثارة رائعة لمدة أربعين يوما، ولكن هذه الإثارة كانت لصالح الفرنسيين، هم لم يعودوا الآن غير مؤمنين، وجميع ماقاله النبى ﷺ لم يعد ينطبق على الغزاة الذين وضعوا جميع أمجادهم عند قدم عرش الإسلام.

آلاف الشائعات انتشرت بين الناس، بعضهم قال: إن النبى نفسه ظهر للسلطان الكبير، وقال له: « المماليك حكموا فقط طبقا لأهوائهم وقد سلمتهم إليك. أنت تعرف وتحب القرآن، لقد منحت القوة للشيوخ والعلماء، وكل شىء لك ناجح، ولكن عليك أن تكمل مابدأته، وذلك بأن تعترف وتؤمن بمبادئ الشريعة أنها شريعة الله، والعرب ينتظرون الإشارة فقط، وأنا سوف أمنحك غزو جميع آسيا».

المناقشات والإجابات التى تنسب للسلطان الكبير تتنوع وتتوسع إلى ألف شكل مختلف، انتهز هذه الفرصة لكى يوحى أنه طلب فى إجاباته أن يمنح سنة؛ لكى

يعد جيشه الذى منحه محمد له، وأنه وعد أن يبنى جامعا كبيراً، وأن جميع جيشه سوف يصبح مسلما، وأن الشيخين العظيمن: السادات والبكرى يعتبرانه مسلماً.

ثالثا: الفتوى

رجال الإفتاء الأربعة وضعوا الفتوى ووقعوا عليها. قالوا فيها: إن الختان هو طهارة، وإن النبى ﷺ لم يشرعه بل أوصى به فقط، ولهذا يستطيع الإنسان أن يكون مسلما بدون ختان، أما بالنسبة للموضوع الثانى، قالت الفتوى: إن الإنسان يستطيع أن يشرب النبيذ، ويظل مسلما ولكنه فى هذه الحالة سوف يكون مذنبا، ولن يكون لديه أمل أن يحصل على الطيبات التى وعد بها الصالحون. أظهر ناپوليون رضاءه عن الحل الذى وضع للموضوع الأول، وبدا أن سروره كان صادقا، وشاركه الشيوخ الكبار هذا السرور، ولكنه أبدى أسفه على الجزء الثانى من الفتوى، كيف يقنع الرجال باعتناق دين يجدون فيه أنفسهم من ا لمغضوب عليهم وفى وضع عصيان للوصايا السماوية؟

الشيوخ وافقوا على أن هذا سوف يكون أمرا صعبا وقالوا: إن العنصر الثابت فى صلواتهم سوف يكون التماس معونة رب إسماعيل. بعد نقاش طويل اختلفت فيه آراء رجال الافتاء، إذ إن بعضهم رأى عدم وجود وسيلة للتوفيق، ورأى البعض على عكس ذلك، أنه مازال موضوعا يقبل التعديل، الشيخ المهدى اقترح أن تقتصر الفتوى على نصفها الأول، هذا سوف يكون له تأثير سعيد على الدولة؛ لأنه سوف ينير الناس الذين لم يكونوا متفقين على موضوع الختان، وأن يترك الجزء الثانى من المشكلة إلى نقاش لاحق. ربما يمكنهم استشارة شيوخ وأشراف مكة، طبقت هذه التوصية. نشرت الفتوى فى جميع المساجد. الأئمة بعد صلاة الجمعة وهم يقومون كالعادة بالدعوة، شرحوا الفتوى وتحدثوا جميعا بقوة، وفى وقت واحد لصالح الجيش الفرنسى.

الجزء الثانى من الفتوى كان موضوع نقاش طويل ومراسلات مع مكة، فى النهاية مع عدم قدرتهم على تجاوز المعارضة أوتوفيق كل شىء مع النص المقدس أو السنة الصحيحة للنبى ﷺ، قام رجال الإفتاء بوضع فتوى قالوا فيها: إن من

يتحولون إلى الإسلام حديثا، يمكنهم شرب النبيذ مع بقائهم مسلمين، شريطة أن يكفروا عن هذا الإثم بالأعمال الصالحة وأعمال الإحسان، ولأن القرآن أمر بإعطاء الصدقات وأعمال الإحسان بما لايقل عن عشر دخل الإنسان(*)، فإن أولئك الذين يستمرون فى شرب النبيذ يجب أن يلتزموا بمنح صدقات تبلغ خمس دخلهم.

قبلت هذه الفتوى، وبدت ملائمة لإرضاء كل إنسان، الشيوخ واثقون تماما، وكرسوا أنفسهم لخدمة السلطان الكبير، وأدركوا احتياجه إلى سنة على أقل تقدير لكى ينير العقول ويتجاوز المقاومة. قام هو أيضا بإعداد الرسوم الهندسية والخطط والمواصفات لبناء جامع كبير يكفى لإيواء جميع الجيش، استعدادا لليوم الذى يعتنقون فيه شريعة الله.

فى نفس هذا الوقت، اعتنق الجنرال مينو الإسلام علنا، كان يذهب إلى الجامع فى رشيد، لم يطلب أى تسهيلات. هذه الأخبار غمرت جميع سكان مصر بالبهجة ولم تترك أى ريب فى صدق الآمال التى لديهم فى كل مكان كان الشيوخ يقولون للناس: إن ناپوليون أصبح مؤمنا يحب القرآن ولديه رسالة من النبى ﷺ وأصبح خادما مخلصا للكعبة المكرمة.

ثورة الرأى هذه أنتجت ثورة أخرى داخل الإدارة. كل ماكان صعبا أصبح سهلا كل ماكان لايستطيعه الإنسان إلابقوة السلاح، أصبح يقدم إليه بطيب خاطر دون جهد، منذ تلك اللحظة أصبح الحجاج - حتى أكثرهم تعصبا - يقدمون للسلطان الكبير نفس الاحترامات التى يقدمونها لأمير مسلم، ورويداً رويداً أثناء هذه الفترة، كان القائد العام لايظهر نفسه فى المدينة دون أن يحنى المؤمنون أنفسهم احتراما له، كانوا يعاملونه كما تعودوا أن يعاملوا السلطان.

رابعا: عيد وفاء النيل

مولد النبى ﷺ

كان يوم ١٨ أغسطس عندما وصل ارتفاع مياه النيل أربعة عشر طولا عند مقياس

(*) النسبة الصحيحة هى ربع العشر، ٥ر٢٪ - المترجم.

الروضة، وقام الديوان والقاضى بكسر السور البحرى المقام على قناة أمير المؤمنين هذا الاحتفال هو أحد الاحتفالات التى يلعب فيها سكان القاهرة دورا كاملا، قبل شروق الشمس قام ٢٠٠ر٠٠٠ مشاهد بتغطية شاطئ النيل عند مصر القديمة وعند جزيرة الروضة، ووقفت عدة آلاف من الزوارق والقوارب الصغيرة تغطيها الأعلام والمظلات فى انتظار اللحظة التى تسير فيها على النيل، ووقفت فرقة من الجيش الفرنسى بأسلحتها فى استعراض منتظم. السلطان الكبير ترافقه هيئة ضباط الجيش الفرنسى ورجال الافتاء الأربعة والعلماء وكبار الشيوخ والأشراف وأعضاء الديوان وعلى يمينه الشيخ البكرى من نسل النبى محمد ﷺ (*) وعلى يساره الشيخ السادات من نسل الحسن بن على رحلوا من القصر، وساروا عبر المدينة ووصلوا إلى كشك بجوار فتحة القناة. استقبله القاضى وشيوخ المقياس.

قرئت المذكرة التى تقرر الارتفاع الذى وصلت إليه مياه النيل، وأحضرت القياسات وصدق عليها علنا. توقيع هذه المذكرة وإعلانها، حَيَّتْهُ طلقات المدافع وهتافات المرح من حشود المشاهدين، وقام القاضى بهدم السور البحرى مع الطقوس التقليدية. استغرق ساعة لإزالته.

تدفقت مياه النيل إلى القناة من ارتفاع ثمانية عشر قدما، وبعد ذلك بوقت قصير قام الزورق الذى يحمل شيخ المقياس بدخول القناة أولا، ثم تبعته بقية القوارب وظلت تدور فوق المياه طوال اليوم. الصراف العام «إستيف» ألقى على الحشود مبالغ طائلة من العملات الفضية الصغيرة. الطعام الذى قدم فى الكشك كان طعاما فاخرا. كرس السلطان الكبير نفسه بإخلاص للقيام بجميع المهام التى اعتاد رئيس الدولة أن يؤديها.

كان فيضان النهر هذا العام أعظم بكثير من فيضانات الأعوام السابقة، المدينة أنيرت بالكامل، وكانت فى مهرجان طوال هذه الليلة والليالى الثمان التالية، بعد وقت قليل أصبحت ميادين القاهرة العامة كالبحيرات، وأصبحت بعض شوارعها قنوات، وأصبحت حدائقها مروجا تغطيها مياه ترتوى منها الأشجار. عبر شهر

(*) أى من نسل الحسن أو الحسين - المترجم.

سبتمبر قدمت مصر كلها مشهدا شبيها بالبحر، إذا نظر إليها من فوق الأهرامات أو من فوق جبل المقطم أو من فوق قصر صلاح الدين.

كان المشهد ساحرا. المدن والقرى والأشجار والمآذن وقباب القبور كانت تطفوا فوق فيض من المياه التى تزدحم فى كل اتجاه بآلاف من الأشرعة البيضاء لقوارب كبيرة وصغيرة تستخدم فى النقل والمواصلات وتلبية إحتياجات السكان. توقفت الجنود عن شكواهم أن النيل لايرتفع إلى مستوى شهرته، ولم يعودوا يقولون إنه جدول مياه شارد ومجرى ماء موحل وعكر. يبلغ النيل فى أقصى ارتفاعه ٢٧ إلى ٢٨ قدمًا، ومعظم قنواته ترتفع من ثمانية إلى إثنى عشر قدما، ويرتفع ماؤه عن سطح الأرض من أربعة إلى ستة أقدام. فى ديسمبر يتقهقر النيل إلى داخل شواطئه وقنواته. تبدأ الأرض فى الظهور ببطء، آلاف الفلاحين اندفعوا إلى زراعة الأرض، غرسوا جميع أنراع الحبوب والخضروات، وبعد أسابيع قليلة لاحقة، تظهر أول الثمار. مشهد هذه الوديان اليانعة تغطيها المحاصيل الغنية كان فاتنا. ظن الجنود أنهم عادوا إلى إيطاليا الجميلة، كان تباينا كبيرا مع الأرض الجرداء أثناء يونيو ويوليو منذ ستة شهور مضت.

فى آخر أغسطس من هذا العام (١٧٩٨) احتفلوا بيوم مولد النبى، الجيش شارك السكان بهجتهم، وأضيئت المدينة بمصابيح ملونة، كل جامع وكل قصر وكل سوق وكل مكان أبدع فى نمط الإضاءة. قاموا بعرض لألعاب النار. الجيش فى نظام استعراضى قام بمناورات متنوعة تحت نوافذ مسكن الشيخ البكرى، وزاره القائد العام وكبار الضباط. جميع العلماء ورجال الإفتاء كانوا هناك يجلسون على وسادات على الأرض يرتلون تواشيح مدح الرسول ﷺ، وكبار السن المبجلين- هؤلاء- أمضوا ساعة يتلون أشعارا عربية فى مدح الرسول، تهتز أجسادهم بحركات جماعية سريعة. فى لحظة محددة من الدعاء، انطلقت مائة قذيفة مدفع من حصن الجيزة تحية للشعر الذى يعلن دخول محمد إلى المدينة. كان ذلك بداية الهجرة.

الطعام الذى أعده الشيخ البكرى قدم على خمسين مائدة صغيرة، بكل منها

خمسة أماكن، فى الوسط جلس السلطان الكبير والشيخ البكرى، وفرق الموسيقى العسكرية عزفت لجميع الناس، وشاركت فى البهجة العامة. جميع ميادين المدينة ازدحمت بالناس، اصطفوا فى دوائر من ستين أو مائة رجل تتشابك أيديهم، ويرتلون تواشيح مدح الرسول، كانوا طوال الوقت يتحركون إما بالدوران يمينا ويسارا أو القفز أماما وخلفا بقوة أدت إلى سقوط عدد منهم فى إغماء.

انتشر الدراويش فى جميع هذه الدوائر، واكتسبوا إعجاب الناس واحترامهم. الحرية والمدح الشديدان اللذان قذف بهما المسلمون أنفسهم فى هذه الطقوس والانفتاح والبهجة والأخوة التى وجدت بينهم وبين الجنود، أظهرت بوضوح قدر التقارب الذى حدث بينهم.

فى يوم عطلة الجمهورية الفرنسية فى اليوم الأول من ڤينديمير، قام المسلمون عرفانا منهم بالدور الذى لعبه الجيش فى الاحتفال بوفاء النيل وبمولد النبى، بمشاركة جادة حيث شيدوا هرما فى ميدان الأزبكية، رجال الإفتاء والقضاة والعلماء وكبار الشيوخ اصطفوا حول السور الذى يحيط بقاعدة الهرم، بعد سماع بيان القائد العام والقيام ببعض المناورات، سار الجيش فى استعراض التبجيل الذى منح فى هذا الاحتفال لجميع أعضاء المجتمع البارزين، أثار أعظم ارتياح لدى عامة الناس.

القائد العام قدم الطعام لمائة ضيف، عرضت فيه العظمة التى قد يتمتع المرء بها فى باريس. فى المساء أقيمت مسابقات ومباريات من جميع الأنواع للترفيه عن الناس وعن العسكر. مشهد جديد يعطيه الفرنسيون اهتماما شديدا كان بالونا أطلقه كونتيه، انطلق واختفى فى صحراء ليبيا الكبيرة، ولم يعرف أحد أبدا أين هبط، ولم يكن فيه أى إنسان، ولكنه حمل أبيات شعر كتبت بالتركية والعربية والفرنسية، ولم يكن فيه أى شىء خلاف ذلك يثير فضول المسلمين، ولكنه و إن لم يكن قد أحدث التأثير الذى استهدفه، إلا أنه كان موضوعا لشائعات شتى. قال بعض المؤمنين : إنه كان وسيلة للمراسلة بين السلطان الكبير وبين الرسول.

الشيخ المهدى ضحك بصوت عال على هذه الشائعة الكاذبة لقوتها. نظم عنها بعض أبيات جميلة من الشعر العربى انتشرت فى جميع أنحاء الشرق.

خامسا: إمام مكة

كان الشريف غالب يحكم مكة. علماء القاهرة كتبوا إليه يخبرونه بوصول الجيش الفرنسى والحماية التى يقدمها للدين الإسلامى. أجاب كرجل يريد الإبقاء على المصالح المهمة التى له فى مصر. حاكم لأرض فقيرة، كانت مصر تقدم لبلده القمح والشعير والخضروات، التى تقيم أودها. مكة رغم أنها حرمت كثيرا من رخائها السابق، كانت لاتزال تحتفظ بأجزاء منه من خلال إقامة القوافل الآتية من الشرق ومن الغرب. قوافل الشرق تتجمع فى دمشق وتأتى من هناك وقوافل الغرب تبدأ من القاهرة.

كتب الشريف إلى السلطان الكبير، وخلع عليه لقب خادم الكعبة المكرمة الذى انتشر عبر المساجد وأنتج تأثيرا مفيدا. شريف مكة حاكم مستقل لديه قواته الخاصة ولكن جدة الميناء تنتمى إلى سلطان تركيا الذى يحتفظ بحامية له هناك، مبعوثه هناك هو أحد الباشوات الذى أخذ حرية فرض سلطته على المدينة ذاتها.

سياسة القسطنطينية كانت ترمى إلى تقليص النفوذ الدينى لشريف مكة بقدر المستطاع. السلاطين هم خلفاء المسلمين، ونجحوا بفاعلية فى تحييد شريف مكة. سياسة القائد الفرنسى كانت عكس ذلك، كان يهتم بتعزيز الاحترام الدينى لهذا الأمير الصغير الذى يعتمد على مصر لتلبية احتياجاته. هذا النفوذ تضاءل كثيرا كما تضاءل نفوذ شيوخ القسطنطينية.

ناپوليون لم يتسامح فقط، بل قام بجميع الوسائل بتشجيع الاتصال بين العلماء وبين شريف مكة الذى فهم سريعا كل ماتعنيه هذه السياسة بالنسبة لمصالحه. تمنى شريف مكة أن تزداد قوة الفرنسيين فى مصر، وكان دائما يؤيد ذلك فى جميع الأمور التى تعتمد عليه.

عين أمير أغا أميراً للحج. هذا الاختيار أذهل جميع الناس، ولكنه كان نتيجة

لنفوذ وجهات نظر الباب العالى. أوضح هذا الاختيار الرغبة فى أن يحتل أحد العثمانيين هذا المركز الدينى المهم. قام بتشكيل فرقة من ٦٠٠ رجل لحراسة قافلة الحجاج، وأصبح سريعا شخصية شديدة الاحترام والنفوذ.

الكسوة التى ترسلها القاهرة كل عام إلى الكعبة المكرمة مع قافلة الحجاج كانت من الحرير المزركش بتطريز ذهبى ثمين، وكانت تصنع فى جامع السلطان قلاوون صدرت الأوامر أن تصنع هذه الكسوة بجودة أكثر وأن تزين بتطريزات أكثر من العادة.

الضباط المهندسون الذين يقومون بتشييد التحصينات، قلبوا بعض القبور انتشرت الأخبار وسببت غضبا شديدا. حوالى الساعة السادسة مساء، تدفقت حشود الناس إلى ميدان الأزبكية، وأحدثت نوعا من الضوضاء تحت نوافذ السلطان الكبير. قام الحرس بإغلاق الحواجز وحملوا السلاح.

أطل القائد عليهم من النافذة ومعه مترجمه ڤينتور، الذى شرح له أن هذا كان استعراضا للثقة، وعادة متبعة لتقديم التماس للحاكم. نزل ڤينتور إلى الحشود، فتح الحواجز، وطمأن الحرس، وشكل وفدا من عشرين رجلا.

صعد أعضاء الوفد إلى مقر القائد. حيوهم باحترام، وعاملوهم كأنهم من كبار الشيوخ وقدمت لهم القهوة والمثلجات، وأدخلوهم بعد ذلك لمقابلة القائد العام قدموا إليه شكواهم. القبور هدمت! تصرف الفرنسيون كأنهم من الكفار أو الوثنيين، معظم أعضاء الوفد كانوا من أئمة ومؤذنى المساجد، وهم عادة شديدو التعصب، وكانوا يتحدثون بحدة.

سجلوا شكواهم واعتبروا المهندسين الفرنسيين مذنبين. صدرت الأوامر بإيقاف عملهم فورا، وأنهى الشيوخ جميع الإجراءات الرسمية المفروضة فى مثل هذه الظروف. شعر أعضاء الوفد بفخر شديد، نقلوا رضاهم إلى الحشود، ورفعتهم الحشود على الأكتاف وهم يرون مافعلوه، حيت الجماهير تقريرهم بصيحات فرح ذهبوا بعد ذلك إلى القبور التى انتهكت حرمتها. الأعمال توقفت فعلا، فخورون بنصرهم، هدأت ضمائرهم وهرولوا عبر المدينة يرتلون آيات القرآن. انتهو

بالذهاب إلى جامع الأزهر حيث قام الإمام بالدعاء للسلطان الكبير والدعاء للنبى أن يعزز مشاعره المؤيدة للإسلام.

منحت المساجد أراض كثيرة، ولكن إدارات المساجد كثيرا ما كانت تسىء استخدام دخلها. السلطان الكبير راغب فى إظهار اهتمامه بكل ما يتعلق بالدين، أكد جميع المنح والهبات المخصصة للمساجد والقبور والمنشئات الدينية، وعندما علم أن جامع الحسين يدار بطريقة سيئة، ذهب إليه بنفسه أحد الأيام فى وقت إقامة الصلاة. جميع الناس خرجوا وأحاطوا به، وأذهلهم هذا المشهد الجديد.

استُدْعى الأئمة المسئولون عن صيانة المسجد، لماذا أسأتم رعاية مسجد الله هذا؟ سألهم وَاستطرد يقول: هل يهب المؤمنون صدقاتهم وأراضيهم لصالحكم أنتم وأسركم أم لصالح وخدمة الدين؟

قام فورا باختيار ستة مواطنين محليين بارزين، وأمرهم بتقديم حساب عن إنفاق أموال المسجد. أيد الرأى العام هذا الإجراء بقوة. أظهرت نتيجة الحساب أن الإداريين مسئولون عن مبالغ طائلة أعيدت، وخصصت لتجديد المسجد.

كرر ناپوليون نفس الإجراءات لمساجد أخرى أسىء استخدام أموالها، عرض فى رحلاته اهتمامات مماثلة. أمر بمراجعات كثيرة، وأدى ذلك إلى إحياء أعمال إصلاح المساجد فى جميع الأنحاء. الاتهامات ضد من سلبوا أموال المساجد كانت تأتيه فى رسائل موقعة أو مجهولة المصدر، **وأظهر اهتماما كبيرا بمراجعة الحسابات وإعادة الأموال التى تخص المساجد، وهو ما أسعد الشعب كثيرا لأجل الدين؛ ولأن الناس يشعرون بالسعادة عندما يرون من ائتمن على المال العام يعيد مااكتسبه بطريقة غير شرعية.**

سادسا: عن الفنون والعلوم والأدب أيام الخلفاء

الإمبراطوريات أقصر عمرا فى آسيا عما هى عليه فى أوروپا؛ لأن آسيا تشمل صحارى شاسعة، يعيش فيها أقوام فقيرة عنيفة، ترعى عددا ضخما من الجياد، وعندما تقوم بعض الثورات بدفع هذه القبائل البربرية إلى الأراضى الخصبة، تتكفل

بإسقاط السلالات الحاكمة، وتدمير الإمبراطوريات وإنشاء دول جديدة.

المغول والتتار والأتراك أثبتوا أنهم أعداء العلوم والفنون، ولكن هذا الخزى لايمكن أن ينطبق على العرب، خاصة رسولهم. معاوية أول خلفاء بنى أمية، كان شاعرا. عفا عن أحد الأحبار؛ لأنهم التمسوا العفو عنه بأربعة أبيات جميلة من الشعر العربى. يزيد ابنه كان شاعرا أيضا.

يقدر المسلمون نوعية الأشياء كما يقدرون الشجاعة. المنصور، وهارون الرشيد والمأمون كانوا رعاة للفنون والعلوم، أحبوا الأدب والكيمياء والحساب. عاشوا مع العلماء، وكانت لديهم مؤلفات إغريقية ولاتينية مترجمة إلى اللغة العربية. الإلياذة والأوديسا وإقليدس وغيرها. أسسوا مدارس وأكاديميات الطب والفلك والأدب.

أحمد صحح جداول بطليموس. عباس كان عالم حساب مرموق. الكيمياء والتقطير والمزاول والساعات وإشارات الأرقام الحالية، جميعها اختراعات عربية. لاشىء يتفوق على عذوبة أدبهم، أشعارهم مليئة بالدفء، النبى ﷺ فى كل مكان أوصى بالعلماء، وبمن كرسوا أنفسهم لفلسفة الحياة ولدراسة الأدب.

إذا كان العرب قد أهملوا علم التشريح فقد كان ذلك بسبب التحفظ الدينى، كان يوجد فى مكتبة القاهرة ستة آلاف كتاب عن الفلك، وأكثر من مائة ألف كتاب آخر. مكتبة قرطبة كان بها ٣٠٠ر٠٠٠ كتاب. العلوم والفنون سادت مدة ٥٠٠ سنة من أيام الخلفاء، وكانت تتقدم بسرعة إلى أن أنهاها غزو المغول.

سابعا: عن تعدد الزوجات

الرسول محمد ﷺ حدد عدد النساء اللاتى يستطيع الرجل أن يتزوجهن. قبل أيامه لم تكن لها حدود، وكان الغنى يستطيع أن يتزوج عددا كبيرا منهن. هو بذلك قيد تعدد الزوجات. لاتولد نساء أكثر من الرجال، لماذا إذا يسمح لرجل واحد أن يكون له عدة زوجات؟ ولماذا لم يطبق الرسول محمد تعاليم يسوع المسيح فى هذا الموضوع؟

واضعو القوانين فى أوروبا اليونانيون أو الألمان أو الرومانيون أو الفرنسيون أو الإسبان أو البريطانيون، لم يسمحوا أبدا بأكثر من زوجة واحدة. فى الغرب لم يسمح أبدا بتعدد الزوجات. فى الشرق من الناحية الأخرى كانو دائما يمارسونه طوال التاريخ، جميع الرجال اليهود أوالأشوريين، العرب أو الفرس التتار أو الأفريقيين استطاعوا الجمع بين عدة زوجات.

نسبت هذه الاختلافات إلى الظروف الجغرافية. آسيا وأفريقيا يسكنها رجال متعددوا الألوان. تعدد الزوجات هو الوسيلة الوحيدة لصقلهم معا حتى لايقوم الأبيض باضطهاد الأسود أوالعكس. تعدد الزوجات جعلهم يولدون من نفس الأب أومن نفس الأم. الأسود والأبيض يصبحان أخوين يريان أنفسهما وهما جالسان حول نفس المائدة، وهكذا لايستطيع لون فى الشرق أن يدعى تعاليه على لون آخر، ولكن لتحقيق هذا الهدف رأى الرسول محمد أن أربع زوجات تكفى.

قد يسأل الإنسان كيف يمكن السماح بأربع زوجات مع عدم وجود عدد من النساء أكثر من الرجال؟ ذلك لأن الحقيقة أن تعدد الزوجات لايحدث إلابين الأغنياء، وحيث إن هذه الطبقة هى التى تشكل الرأى العام، فإن اختلاط الألوان داخل هذه العائلات، هو وسيلة ملائمة للحفاظ على وحدتهم.

داخل مستعمراتنا، عندما نقرر تحرير السود من العبودية والتخلى عن تحيز اللون سيسمح واضعو القوانين بتعدد الزوجات.

لم تكن العبودية فى الشرق أبدا مثل العبودية فى الغرب، عبودية الشرق كانت كما يرى الإنسان فى الكتب المقدسة، تسمح بأن يرث العبد سيده، ويتزوج ابنته. معظم الباشوات كانوا عبيدا، وكذلك عدد كبير من كبار الوزراء وجميع المماليك مثل على بك ومراد بك بدأوا يعملون كخدم فى بيوت سادتهم، وصعدوا من خلال الموهبة أوالعطف. فى الغرب، العبد كانت له دائما منزلة وضيعة.

حرر الرومان عبيدهم، ولكنهم لم ينظروا إليهم أبدا على قدم المساواة مع من ولدوا أحرارا. أفكار الشرق تختلف كثيرا عن أفكار الغرب؛ ولذلك أخذ المصريون وقتا طويلا؛

لكى يفهموا أن الجيش الفرنسى كله لايتكون من عبيد يملكهم السلطان الكبير .

الوالد فى الأسرة هو حكمها الأول له كامل الحقوق على زوجاته وأطفاله وعبيده الإدارة العامة لاتتدخل أبدا فيما يحدث داخل الأسرة، خشية التعدى على سلطة الأب . زوجاته مقدسات ومحترمات حتى أثناء الحروب الأهلية . زوجات المماليك بقين فى بيوتهن بالقاهرة، ولم يتوقعن أبدا أن أى إنسان قد يتحرش بهن، كن محترمات وعشن فى حرية .

ثامنا : العادات والأخلاق

زوجات البكوات وكبار المماليك كن أحيانا يطلبن مقابلة السلطان الكبير يحضرن تحيط بهن حاشية كبيرة وجوههن مغطاة . طبقا لعادة هذه الدولة، لايستطيع الإنسان أن يحكم على قدر جمالهن، لكن أيديهن الصغيرة ووقفتهن المحترمة وأصواتهن الرقيقة، عادات تظهر رخاءهن وحسن تعليمهن، وتبين منزلتهن ونوعياتهن .

قبلن يد السلطان الكبير، ورفعنها إلى رؤوسهن وقلوبهن، جلسن على وسادات حريرية وبدأن الحديث . عرضن ذكاء شديدا ودلالا كأفضل نساء أوروبا؛ لكى يحصلن على ماجئن من أجله .

كانوا عبيدًا لأزواجهن، مع ذلك جميع الحقوق التى يكفلها الرأى، مثلا كذهابهن إلى الحمام المكان الذى تحاك فيه المؤامرات، ويجرى فيه أكبر جزء من الزيجات . أغا أنكشارية القاهرة، المسئول عن الشرطة، قدم خدمة كبيرة للجيش . كمكافأة له، سأل السلطان الكبير أن يزوجه من أرملة يشتهيها، هذه الأرملة كانت جميلة وغنية .

ـ ولكن كيف عرفت أنها جميلة هل رأيتها؟

ـ كلا .

ـ كيف تريدنى أن أمنحها لك؟ هل ترغب هى فى ذلك؟

ـ دون شك إن أردت أن تسألها .

فعلا بمجرد أن أخبروا هذه الأرملة برغبة القائد العام، أذعنت لها . مع ذلك هذان الزوجان لم يريا أويعرفا بعضهما أبدا قبل ذلك . عدد كبير من الزيجات تتم بهذا الأسلوب .

عندما ترحل الزوجات إلى مكة، يجلسن على نوع من المخادع المصنوعة من الخيرزان المجدول، مغطى ومغلق بالستائر، يوضع على ظهر الجمل، ويرتكز على جانبى السرج، ويتسع لجلوس امرأتين .

زوجة الجنرال مينو استمرت بعد زواجها فى الذهاب إلى الحمامات العامة برشيد(*) . جميع النساء كن يستقبلنها ويسألنها عن حياتها المنزلية، أخبرتهن عن الرعاية الفائقة التى يغدقها زوجها عليها، على مائدة الطعام يخدمونها أولا ،يعطونها أفضل الأشياء، يمسكون يدها عندما تسير من غرفة إلى أخرى، ويهتمون كثيرا بخدمتها وتلبية احتياجاتها ورغباتها . هذه الأقوال كان لها تأثير قوى على جميع نساء رشيد، دارت رؤوسهن وأرسلن التماسا إلى السلطان الكبير ؛ لكى يأمر المصريين فى جميع أنحاء مصر بمعاملة زوجاتهم طبقا لعادات الفرنسيين .

استرعى المعهد اهتمام الناس . المكتبة وجميع الأجهزة الميكانيكية والفيزيائية والأحجار والنباتات والأشياء الأخرى التى جمعها العلماء من الريف، وضعوها فى قصر المعهد أوفى حديقته . أخذ السكان وقتا طويلا ؛ لكى يدركوا مايفعله هذا الجمع الكبير من الشخصيات العاقلة المجتهدة الذين لايوجد لديهم هدف دينى، كانوا يعتقدون أنهم يصنعون الذهب .

أخيرا مع ذلك أصبح لديهم مفهوم أكثر دقة، ونال العلماء احترام الناس، ليس فقط من أساتذة القانون والشخصيات الرئيسية فى الدولة بل أيضا من عامة الناس ؛

(*) كانت مصرية .

لأنهم كانوا يتصلون كثيرا بالعمال، يعطونهم نصائحهم، ربما فى الأعمال الميكانيكية وربما فى الكيمياء، يوجهونهم فى أعمالهم. هذا وضعهم فى مرتبة رفيعة من الاحترام بين الناس.

حضر الشيخ المهدى جلسة دراسية بالمعهد، شرح مترجم له مايقال، كانت محاضرة ألقاها چيوفروى عن أسماك النيل. طلب الحديث، وقال: «إن النبى ﷺ أعلن أن الله خلق ٣٠٫٠٠٠ نوع من الحيوانات، ١٠٫٠٠٠ منها على الأرض والهواء، ٢٠٫٠٠٠ فى الماء». كان هذا الشيخ الأكثر علما والأكثر دراسة وعالى البلاغة.

فى أحد الأيام عندما كان كبار الشيوخ يجلسون مع القائد العام، وصل ضابط من قليوب ومعه تقرير أن العرب اعتدوا على قرية فقيرة وقتلوا فلاحا. أظهر ناپوليون غضبا شديدا، وأمر ضابطا كبيرا أن يأخذ ٣٠٠ فارس وأن يعاقب ويكبح المعتدين.

لأنه تحدث بحدة. سأله أحد الشيوخ: لماذا أنت غاضب؟ هل الفلاح الذى قتل هو أخوك؟

نعم **قال السلطان الكبير: جميع من يطيعوننى هم أبنائى.**

قال الشيخ الشرقاوى: «طيب... طيب... ماقلته صحيح، أنت تتحدث مثل النبى محمد ﷺ»

قام بعد ساعة لاحقة برواية هذا النقاش فى أحد المساجد الكبيرة وسط حشد كبير مما أسعد عامة الناس الذين هتفوا: الله أكبر، الله عادل، إنا لله وإنا إليه راجعون!